إضاءات مقارنة بين رسالة الإشارة إلى أدب الوزارة للسان الدين بن الخطيب وكتاب الأمير لينقولو ميكافيلي

هدى أبو غنيمة

إطلالة الرؤية:

لما كان إنجاز الحضارة الغربيّة، في عصور ازدهارها متمثلاً في التواصل مع ثقافات الحضارات الأخرى والإضافة إليها، فإن تطلعنا إلى نهضة حضارية يدعونا إلى استثمار سلطة المعرفة في عصرنا، لإبداع نموذج حضاري يضيف إلى المعرفة الإنسانية لنشارك في المشهد الإنساني، منتجين لا متلقين وتابعين، وهو طموح مشروع ما دمنا قادرين على التواصل مع أنفسنا، ولغتنا، وتجربتنا الإنسانية، ومتمثلين بوعي لجلال اللفظ والمعنى في كتابنا الكريم: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾(١).

وما دمنا أيضاً قادرين على تفعيل الملكة النقدية ليكون لنا دور تنويري تثقيفي في مرحلة أصبح فيها جوهر الخطاب الحداثي، هو الثورة على الماضي والتراث، وغلب على الثقافة الإنسانية (السعي لتقويض التراث سواء عن طريق تغييبه أو عن طريق استحضاره منفياً)(٢).

لقد أورثنا اضطراب الوعي بمفهوم الحداثة انقطاعاً معرفياً عن التواصل مع ما نحتاجه من التراث الحي (وهو ما كان ذا ريح قوية ونار ملتهبة ومستمراً في التجربة المعيشية يحمل قوة الاستمرار، والحضور في وعينا الشامل، وفي تشخصنا الحاضر مما ينحدر إليها من التجارب الماضية في المعرفة والقيم والنظم والمصنوعات. والحضور هنا مقوم للوعي بانٍ للفرد، بما هو شخص أو ذات ذات سمات فرديّة ومجتمعية مخصوصة، أي متمايزة ومتميزة)(٣).

فهل تعني مواكبة التحولات الحضارية المعرفية المذهلة إهمالنا لذاتنا الحضارية وخبراتها، التي بنى عليها الغرب إنجازاته الحضارية؟

أم الوعي بذاتنا هو وعي بالآخر أيضاً؟ ذلك الوعي الذي عبر عنه الفيلسوف الكندي قائلاً: "إن تراث كل أمة إنما هو حلقة من حلقات تتميم النوع الإنساني"(٤)، لعل قراءة واقعنا الحضاري المضطرب اليوم بعيون الآخرين قد أورثنا نظرة دونية إلى أنفسنا متناسين أن الإفادة من معارف الأمم تتجلى في فهم تجربتنا الإنسانية العريقة من منظور المقارنة بين رموزنا المعرفية ورموز الآخر، "تتميماً لما لم يقولوا فيه قولاً تاماً، وذلك على مجرى عادة اللسان وسنة الزمان الآخرين"(٥)، حسب الفيلسوف الكندي لنفهم أن الإنجازات الحضارية تتواصل وتتفاعل عبر العصور، وتؤثر وتتأثر عبر المثاقفة والتجربة الإنسانية، لا عبر الصدام، ولنعي أن (مفهوم الحداثة يميل إلى معنيين:

الأول: عام يفيد الدخول في مرحلة تاريخية – ثقافية – اجتماعية، تحمل عناصر جديدة على سبيل الإضافة أو الدمج أو الاستيعاب أو الابتداع، أو تستبعد عناصر قديمة على سبيل الإزاحة أو الإهمال أو الإسقاط، على وجه يجعل من جملة خصائص هذه المرحلة، مرحلة مباينة ذات سمات مخصوصة.

الثاني: هو هذا، الذي خص به الغرب الحديث نفسه إذ تجاوز بالحداثة المعنى الأول، بأن وجّهه وجهة الحذف والإزاحة الجذريتين، أي وجهة القطيعة (ومسح اللوح) بإزاحة كل ما هو قديم من دين وتراث، ورفع دعائم المجتمع والدولة على أسس مضادة للأسس، التي قامت عليها مرحلة (ما قبل الحداثة)، ذات المرجعية الدينية في العصور المسيحية الوسطى، الملقية بظلالها وآثارها على عصر النهضة والإصلاح، ومطالع العصور الحديثة. وقد حدد (آلان تورين)(×) الحداثة،

بأنها تأكيد القول إن الإنسان هو ما يصنع، وإن من الضروري ترابط الوشائج بين الإنتاج الذي بات بفضل العلم أكثر فاعلية، وبين التقنية والإدارة وتنظيم مجتمع القانون، والحياة الخاصة التي تحركها المنفعة، فضلاً عن إرادة التحرر من جميع أشكال القهر والقسر. وهذا الترابط يعتمد على العقل....)(٦).

من منظور التفاعل والتواصل بين منظوري ثقافتين مختلفتين وسياقين حضاريين مختلفين ويتقاطعان في التجربة الإنسانية. لذلك ألقي الضوء على علم معرفي من رموز تراثنا هو لسان الدين بن الخطيب من خلال رسائله السياسية وبالتحديد (رسالة الإشارة إلى أدب الوزارة)، وبين نيقولو ميكافيلي وكتابه الأمير.

أضواء على فكر لسان الدين بن الخطيب السلماني السياسي:

لسان الدين بن الخطيب هو شاعر وكاتب وفقيه مالكي ومؤرخ وفيلسوف وطبيب وسياسي من الأندلس. ولد في لوشة ٢٥/رجب ٧١٣هـ/١٣١٣م درس الأدب والطب والفلسفة في جامعة القرويين في فاس، وقضى معظم حياته في غرناطة في خدمة بلاط بني نصر وعرف بذي الوزارتين الأدب والسياسة وتوفي في ٧٧٦هـ/١٣٧٤. ذكره ابن خلدون في كتابه التعريف وهو معاصر له بقوله: "كان الوزير ابن الخطيب آية من آيات الله في النظم والنثر والمعارف والأدب، لا يُساجل مداه، ولا يُهتدى فيها بمثل هداه..."(٧).

يشير الباحث إبراهيم عبدالقادر بوتشيش إلى أن من أبرز الكتب، التي عززت رفوف الخزانة التاريخية العربية، كتاب السياسة السلطانية عند لسان الدين بن الخطيب، وهو كتاب يلقي الضوء على تجربة لسان الدين السياسية. من خلال رسالته في احوال خَدَمة الدولة ومصائرهم الذي قسمه الباحثان محمد البركة، وسعيد بنحمادة إلى قسمين كبيرين، يتناول القسم الأول تجربة بن الخطيب السياسية بين التنشئة والممارسة، ضمن أربعة فصول. بينما يتصدى القسم الثاني لدراسة موضوع السياسة السلطانية عند لسان الدين بن الخطيب من خلال رسالتين منسوبتين إليه، وقد عالجهما المؤلفان في فصلين مستقلين(٨). ويرى الباحث أن الكتاب ينطلق من إشكالية مركزية مفادها، أن القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) يمثل قرن النضج والازدهار بالنسبة إلى تاريخ المغرب والأندلس وهو ما تجلى في بروز نخبة من كبار الكتاب ورجال السياسة، وخدمة الملوك والدول، الذين أسسوا لثقافة ما يعرف في لغة لسان الدين بن الخطيب بـ(السياسة السلطانية) وقد نتج عن هذا الجنس الثقافي منتوج غزير في مجال فقه السياسة، وتأملات عميقة في مصائر خدمة الدولة، تميز فيها ابن الخطيب من سائر كتاب الآداب السلطانية، برسم الخطوط الأولية لنظام القول في خدمة السلطان ومصائرهم. فإذا كان مؤلفو الآداب السلطانية، قد عالجوا المؤسسات الدينية والدنيوية، وتفننوا في كتابة متن متميز، يسدي النصائح للسلطان، ويبرر استبداده، فإن ابن الخطيب تفرّد بقراءة استباقية في عواقب خدمة السلطان وحاشيته، من خلال التجربة والمعايشة والممارسة السياسية، ومن القراءة المستلهمة للتاريخ، بعيداً عن تنظير الآداب السلطانية السابقة، فابن الخطيب لم يكن كاتباً يحلق عالياً في (الدولة الفاضلة) أو يعرّج في متاهات الطوباويات، بل كان مفكراً ميدانياً كتب انطلاقاً من الواقع، ومن وعاء خبرته وممارسته في الاشتغال مع الملوك، ومن عيشه متنقلاً بين البلاطات وممارساً للوظائف السامية المختلفة. لذلك فإن إنتاجه يحمل قدراً كبيراً من الفكر التأملي المستنبت من تربة الواقع، ويؤسس لفقه سياسي سلطاني ذي منظور بعدي استشرافي، ولا شك في أن تشربه بالتجربة السياسية، ووعيه التاريخي جعلاه يعالج بعمق إشكالية مستقبل علاقة الكاتب بالسلطان وكيفية تأثير السياسة في لحم العلاقة بين الطرفين، أو إحداث الشرخ بينهما(٩). لقد وردت الرسالتان في بعض المتون التراثية المنشورة في نفح الطيب للمقرّي، وريحانة الكتاب ونفض الجراب (يرى الباحث الدكتور إبراهيم عبدالقادر بوتشيش (أن الإشكالية المركزية في الكتاب، وفرضيات النظر، رغم قيمته تكمن في اعتبار القرن الثامن الهجري، الرابع عشر الميلادي يمثل قرن النضج والازدهار بالنسبة إلى تاريخ المغرب والأندلس، وهو حكم قيمة يحتاج إلى مراجعة(١٠). "صحيح أن هذا القرن، قد شهد ميلاد كبار المؤرخين والكتبة، وعرف ازدهار بعض العلوم، العقلية كعلم الحساب والعدد مع ابن البنا وغيره، لكن الكم ليس معياراً علمياً دقيقاً، لتعميم الازدهار على عصر أثبت فيه بعض المنتسبين إليه: من أمثال ابن خلدون أنه

كان في حالة انسداد فكري وتلوث ثقافي خاصة في مجال علم الكلام والفلسفة. فقد كان المناخ الفكري آنذاك ميالاً إلى كبح جماح الخطابات المتسائلة في مقابل تسيّد التيارات الصوفية والظاهرية، وهو واقع ثقافي برره (ابن خلدون) بـ(نقص العلم والعمران) و(بسيادة عقلية مفككة أنتجت أزمة القرن الرابع عشر الميلادي بوجوهها الثلاثة البارزة: وهي استفحال الظاهرة البدوية، وانتشار وباء الطاعون، وتأزم العمران...) وقد تمظهر هذا الوضع المتأزم في ثلاث واجهات: تسلط الوزراء واستبدادهم بالحكم على حساب السلطان والعنف الجبائي، ثم فساد الأخلاق، الذي يشتد عوده عادة مع انحلال الحضارة، ومن ثم عودة وتيرة التاريخ الدائري الذي يحيل إلى الدورة المنغلقة، والتكلس الثقافي وبطء التطور المجتمعي، وهو ما فطن إليه ابن خلدون حين شعر بتفوق أوروبا، ونهضة (دول الشمال) على حساب دول الجنوب....)(١١). لقد كُتب عن ابن الخطيب الكثير من الدراسات التي تحلل أعماله السياسية والثقافية، وتدرس ظروف حياته وأثر ذلك على إنتاجه. ولقد أورد ابن الخطيب رسالتيه الإشارة إلى أدب الوزارة ومقامة السياسة، ضمن مؤلفه الكبير (ريحانة الكتّاب ونجعة المنتاب) وحقق (الإشارة إلى أدب الوزارة)، و(مقامة السياسة) الباحث الدكتور (محمد كمال شبانة)(١٢).

أمثلة من الإشارة إلى أدب الوزارة:

تحدث لسان الدين في هذه الرسالة عن قدر رتبة الوزارة في الأقدار، وبعض شروط الاختيار، وعقد لذلك ثلاثة فصول، وأوصى في هذا بأنه لا بد من (أركان) فصلها في ستة، ففي:

١. ساق لنا ما يستشعره الوزير بينه، وبين نفسه، ويجعله مجيراً له في يومه وأمسه.

"واعلم أن الملكة البشرية، الخليقة بالافتقار الحريّة – لما كان راعيها مركباً من أضداد متغايرة، وأركان متفاسدة متضائرة، يجذبه كل منها إلى طبعه، بين آخذ برجله، ورافع بضبعه، لم يكمل حراسة ما وكل إليه بنفسه، ولا وفت بضم منتثرها آلاتُ حسِّه، فاحتاج إلى وزير من جنسه ينوب فيما ناب عن شخصه، ويضطلع بتتميم نقصه، وبتيقظ سهوه.... فيحتاج من اتصف بهذه الصفة إلى كمال في الفضل وحاجة في المعرفة، يعدل ما عاض الملك من أمور ملكه، ويوفي ما عجز عن نظم سلكه حتى تبرز المملكة في أتم صورتها وتبلغ الكمال الأخير بمقتضى ضرورتها.... واعلم أنه من لا يضبط نفسه وهي واحدة – لا يضبط أمر الكثير من الناس، على تباين الأغراض، وتعدد الأجناس. فاربأ بنفسك عما تجرّه الشهوات من النقض، وازجرها عن كلب الحرص، وألن جانبك لمن ظهر كماله وقصرت عنه حاله..."(١٣).

٢. ذكر ما يستشعره الوزير مع الملك ليأمن عادية الأمر المرتبك.

"وإذا خدمت ملكاً، زاد رأيك على رأيه وفَضُلَ سعيُك في التدبير حسن سعيه، فأره الاستهانة بمزيدك، واقصر من أشراف جيّدك، وأظهر التعجب مما فضل عليك به، وسر من الحزم على مذهبه، ولا تتبجح بتجاوز ما لأهل طبقتك، وإذا أنفقت عند الكفاية (٥٨: ب) فاقتصد في نفقتك، فإنه لا يحسن منه موقع قولك أو عملك، ويرى أن تغرر به اكثر من تحملك، فيشرع في كسره، وجرك إلى قسره(١٤).

وإذا تعارض عندك العجز في مروءتك وديانتك، وكفايتك وأمانتك، فتنزه الكفاية عنده عما يشين، وأرضَ بالنقص في المروءة لا في الدين، فهو عليه أسهل وفرق ما بين الحالين لا يجهل..."(١٥).

٣. فيما يحذره من تقدم الملك عليه في الأمر الذي أسنده إليه، وجعل زمانه في يديه.

".... واحذر أن تسول لك قوة الإمكان، ودالّة السلطان – الزيادة في الاستكثار، من الضياع والعقار، والجواهر النفيسة والأحجار، وغير ذلك من الاحتجاز والاحتكار، وما تدعو إليه جلالة المحل ونباهة المقدار، فينقسم فكرك وشغلك، ويضيع سعيك وفضلك، ويحصيه عليك من يضمن لك الافتراس، ولا يمكنك – من كيده الاحتراس، ممن حرم حظه، لوكس معناه أو لفظه.... ولتكن همتكم مصروفة إلى استبراء حال المملكة واعتبارها، وتكامل أقطارها، وما عليه كل جزء من أجزائها من سداد ثغراتها ودفاع أعدائها، ونقصان ارتفاعها، واختلال أوضاعها، أو تدبر مصلحة يبقى لك ذكرها وخبرها، ويحسن بك أثرها، وخِف مصارع الدّالة، فهي أدواء دوائك واكبر أعدائك..."(١٦). لعلنا بعد الانتهاء من قراءة سيرة ابن الخطيب ورسائله نتساءل:

هل كان هذا الكتاب خطاباً لنفسه قبل أن يكون لغيره؟ وهو الذي تململ بين نزوع دنيوي، ونزوع أخروي في فترة مضطربة من أحوال الأندلس، وأودى به الصراع في أجواء السياسة، إلى أن ينقلب عليه تلميذه ابن زُمْرُك والقاضي النبهاني وغيرهم إلى خصوم ليحاكم بتهمة الكفر، والخروج عن الشريعة، ويقتل في سجنه غدراً وتحرق معظم كتبه في ساحة غرناطة.

أمثلة من كتاب الأمير لمكيافيلي:

(ولد مكيافيلي في فلونسا في الثالث من مايو/أيار عام ١٤٦٩ وكان الابن الأكبر لبرناردو مكيافيلي وزوجته بارتولومي ويبدو أن برناردو، قد عزم أن ينعم ابنه بفوائد الثقافة الإنسانية المزدهرة في فلورنسا، على الرغم من التكاليف التي قد يتكبدها، بدأ نيقولا في تعلم مبادئ اللغة اللاتينية بعد عيد ميلاده السابع على يد معلم محلي، هو مايسترو ماتيو الذي كان يلقي دروسه في منزل، يبعد مسافة قصيرة من منزل آل مكيافيلي. وفي غضون سنوات قليلة كان مكيافيلي يدرس علم الحساب، ويكتب باللغة اللاتينية تحت إشراف معلم أكثر شهرة يدعى باولو دا رونسيليوني وكان باولو صديقاً وزميلاً لأحد كبار الإنسانيين، وهو كريستوفرو لاندينو، الذي أثرّت تفسيراته لكتاب دانتي الكوميديا الإلهية التي نشرت عام ١٤٨١ تأثيراً عارماً على المسؤولين في مدينة فلورنسا.

ويبدو أن مكيافيلي التحق بعدها بذات المؤسسة التعليمية التي عمل فيها لاندينو نفسه كمدرّس للشعر والخطابة، والتي تحمل اسم استوديو فيورنتينو. جعلت الجامعة مكيافيلي يقف على أرض صلبة فيما يخص جوهر الفروع الدراسية الخاصة بمنهج الحركة الإنسانية، مثل البلاغة وقواعد اللغة والشعر والتاريخ والفلسفة الأخلاقية. وكانت قصيدة الفيلسوف الروماني لوكريشيوس، التي تحمل عنوان (حول طبيعة الأشياء) أحد النصوص التي يبدو أنه درسها باهتمام، إذ نسخ بخط يده أبيات القصيدة كلها التي بلغ عددها سبعة آلاف وأربعمائة بيت، ويبدو أن مكيافيلي الشاب قد فتنته الحجة الرئيسة للوكريشيوس القائلة بأنه ينبغي التخلص من الخوف و(الخرافات الدينية) باستخدام الفصل والتعمق في دراسة الآليات الخفية للطبيعة.

عثر مكيافيلي عندما وصل إلى أواخر العشرينات من عمره على المهنة، التي تمكنه من استغلال مواهبه المتعددة، إذ كانت السياسة تجري في عروقه، فعلى مدار القرنين السابقين تولى العديد من أفراد عائلته مناصب سياسية في فلورنسا غير عابئ بالمصير، الذي لقيه أقرباؤه – في أمور السياسة فقد تعرض اثنان من أبناء عم أبيه برناردو من الدرجة الثانية إلى الإعدام بقطع الرأس بسبب معارضتهما لنظام حكم الأقليّة الذي شاب عصر كوزيمو دي مديتشي(١٧).

رأى مكيافيلي، أن على الأمراء أن يتبعوا نفس القواعد الأخلاقية، التي تتحكم في سلوك الأفراد، ولهذا فقد فرّق بين دراسة السياسة، ودراسة الشؤون الأخلاقية، وأكد عدم وجود أي رابط بينهما.

يوجه رسالته، قائلاً: من نيقولا مكيافيلي إلى لورنزو العظيم نجل بيارو دي مديتشي: "جرت عادة الناس الذين يرغبون في كسب ود الأمير على محاولة هذا الكسب بتقديم الهدايا إليه في الأشياء، التي يعتقدونها بغلاء ثمنها، أو تلك التي يعرفون محبة الأمير لها.... لم أعثر في ما أملكه على شيء أعتز به أو أقدره تقديراً فائقاً كمعرفتي بجلائل الأعمال التي قام بها الرجال العظام، وهي المعرفة التي حصلت عليها بعد تجربة طويلة، وخبرة بالأحداث المعاصرة ودراسة لوقائع الماضي"(١٨).

الأمثلة من كتاب الأمير:

١. من الفصل المعنون: "الأمور التي يستحق عليها الرحال ولا سيما الأمراء المديح أو اللوم": "... علينا أن نرى الآن الطرق والقواعد، التي يجب على الأمير أن يسير فيها بالنسبة إلى رعاياه وأصدقائه. ولما كان الكثيرون قد أسهبوا في الكتابة عن هذا الموضوع، فإني أخشى أن تبدو كتابتي عنه غروراً مني لا سيما، وإنني أختلف في هذا الموضوع عن رأي الآخرين... ولا ريب في أن الإنسان الذي يريد امتهان الطيبة والخير في كل شيء، يصاب بالحزن والأسى عندما يرى نفسه محاطاً بهذا العدد الكبير من الناس، الذين لا خير فيهم. ولذا فمن الضروري لكل أمير يرغب في الحفاظ على نفسه أن يتعلم كيف يبتعد عن الطيبة والخير، وأن يستخدم هذه المعرفة أو لا يستخدمها وفقاً لضرورات الحالات التي يواجهها"(١٩).

٢. "... إن التعمق في درس الأمور، يؤدي إلى العثور على أن بعض الأشياء، التي

تبدو فضائل تؤدي إذا اتبعت إلى دمار الإنسان. بينما هناك أشياء أخرى، تبدو كرذائل ولكنها تؤدي إلى زيادة ما يشعر به الإنسان من طمأنينة وسعادة...."(٢٠).

٣. من باب الرأفة والقسوة، وهل من الخير أن تكون محبوباً أو مهاباً:

"الأفضل أن من الواجب أن يخافك الناس، وأن يحبوك ولكن لما كان من العسير أن تجمع بين الأمرين، فإن من الأفضل أن يخافوك على أن يحبوك. هذا إذا توجب عليك الاختيار بينهما، وقد يقال عن الناس بصورة عامة، أنهم ناكرون للجميل متقلبون، مراءون ميالون إلى تجنب الأخطار، وشديدو الطمع، وهم إلى جانبك طالما أنك تفيدهم، فيبذلون لك دماءهم وحياتهم، وأطفالهم كما سبق أن قلت، طالما إن الحاجة بعيدة نائية، ولكنها عندما تدنو يثورون ومصير الأمير الذي يركن إلى وعودهم، دون اتخاذ أية استعدادات أخرى – إلى الدمار والخراب ومع ذلك على الأمير أن يفرض الخوف منه بطريقة يتجنب بواسطتها الكراهية إذا لم يضمن الحب"(٢١).

إضاءات مقارنة على النقاط الجوهرية في اللقاء والاختلاف بين لسان الدين بن الخطيب ونيقولا مكيافيلي

لعل موطن اللقاء بين رسائل ابن الخطيب، ورسالة مكيافيلي (الأمير) هي أن كلاً منهما:

أولاً: قد نهل من ما يسمى (بالآداب السلطانية)، و(هي كما يراها الأستاذ المغربي د.عزالدين العلّام في كتابه الآداب السلطانية، أن تلك الآداب، تشكل نوعاً قائماً بحد ذاته بين أنواع الفكر السياسي، لازم الثقافة العربية ومن قبلها الفارسية واليونانية والأوروبية، وهي إرث فكري يعتمد على فكرة جوهرية، هي إسداء النصح للحاكم أو الملك؛ بهدف واحد هو تحسين أداء السلطة ولا يهم أدباء هذه الرسائل السلطانية، أن ينظروا في شرعيتها أو الأسس، التي تقوم عليها بقدر ما يعتنون بالبحث في الوسائل والتقنيات، التي من شأنها تقوية السلطة، والحفاظ عليها، ولا يؤرقهم من أحوال الرعيّة أو ذكرها سوى طرح السلوك الواجب على الحاكم الاهتداء به، لاتقاء شر الرعيّة وضمان ولائها، وهم لا يطمحون إلا لتقديم دليل عمل من شأنه أن يفيد الحاكم أو الوزير في ممارسة سلطته، وترتبط فكرة إسداء النصح للحكم بدءًا من أفلاطون، ونصائح أرسطو مروراً بكتاب كليلة ودمنة لابن المقفع وإرث هذه الرسائل في الثقافة العربية. وترتبط فكرة إسداء النصح للحاكم بفكرة أخرى هي من ثوابت ذلك الخطاب، ألا وهي اعتبار أن السلطان مفهوم مركزي تتمحور حوله كل القضايا وخدمته، هي موضوع أولئك الكتاب. ومن العناصر المهمة في تعريف الكاتب السلطاني، أنه رجل سياسة ورجل ثقافة، وقد يكون مؤرخاً أو فيلسوفاً. أو يكتب تقرباً وطمعاً في وظيفة أو موقع كدوافع مكيافيلي في كتابه الأمير. ويتداخل في تلك النصوص التعبير الأدبي والسياسي معتمداً على مختلف مجالات المعرفة من تاريخ وفلسفة وأدب وأخلاق، لكن النصوص تحلّق فوق كل تلك المجالات دون أن تنتمي حقيقة لأي مجال منها كما أن المعرفة فيها تنحل لمجرد أدوات في خدمة ما يسعى إليه النص. وقد عارض ابن خلدون تلك المؤلفات، واعتبرها "لغو أحاديث، واستكثار أقوال"، لأنه كان يرى أن طبائع العمران هي التي تحكم أفعال السلطان، وليس ما تخططه هذه التآليف، لأن إسداء النصح هو تصور مضلل لإمكانية التطور، وقفز على الشروط الحقيقية التي تحكم حركة المجتمع(٢٢).

ثانياً: قانون الصراع في التجربة البشرية الإنسانية "وهو قانون سرمدي، لا سبيل إلى الفكاك من قوته وفعله بسبب أصوله الطبيعية في الوجود البشري وقد أدرك ابن خلدون وهوبز على وجه الخصوص الأسس الواقعية له في الطبيعة البشرية"(٢٣).

ثالثاً: أن الآداب السلطانية، التي نهل من تراثها وإنجازاتها عبر العصور لسان الدين بن الخطيب، ونيقولو مكيافيلي كانت الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس بألقها الذي جمع بين العقل والروح، وإنجازاتها من ألمع المرجعيات التي استند إليها عصر النهضة الأوروبية، وإن أغفلتها معظم المراجع العربية وجعلتها بتهميشها وإغفال فضلها الحلقة المفقودة في سلسلة التراث الإنساني إلا من إشارات من عدد من أخلاقيّي الغرب المفكرين بأن في الإسلام قيماً مدنية

رفيعة، وبأننا عرفنا الحضارة قبل أن يعرفها الغرب.

ولعل مرد ذلك إلى أن الحضارة الأوروبية، التي نمت باطراد، وبتسارع وقطعت صلتها بالتراث وتبنت فكرة الإنسانيين العلمانية في القرن الخامس عشر القائلة بأن "الإنسان هو كل شيء" قد أصبحت حضارة مكتفية بذاتها، وهي المركز والحضارات أو الثقافات الأخرى أطراف تابعة، ليس عليها إلا أن تظل دائرة حوله تحتذي به على الدوام.

نقاط الاختلاف الجوهرية بين لسان الدين بن الخطيب، ونيقولو مكيافيلي:

أولاً: صدر لسان الدين بن الخطيب عن رؤية تضع الأنموذج والمثال في الحضارة العربية الإسلامية في المقام الأول. وأعني بالنموذج هو ما يجب أن يكون عليه الإنسان طبقاً للدين والخلق، والنموذج البلاغي الكلاسيكي والفكري محدداً في الإشارة إلى أدب الوزارة السلوك العملي الذي ينبغي أن يسلكه الوزير مع الحاسدين، وذلك بقمع الطماعين منهم، واستمالتهم، ومقابلة حسدهم بالإنعام عليهم، ثم باصطناع أضدادهم، واخيراً حسن اختيار من يصنعه لخدمته. بينما صدر مكيافيلي عن رؤية تشاؤمية ترى الناس كما هم، في طبيعتهم البشرية، ويقدمهم إلينا في نزعاتهم الدنيئة كأحط ما تكون الدناءة، ولعله لم يحكم على أناس عصره الذين عرفهم فحسب بل امتدت رؤيته إلى ما وراء الزمان والمكان. فهو لا ينخدع ولا يخدع الحاكم، والتعارض في فكر مكيافيلي بين الدولة والفرد تعارض محتوم، وهو ما نطلق عليه النفعيّة والبراغماتية أو الغاية تبرر الوسيلة وقد يطلق عليه الواقعية السياسية النفعية، أو الذرائعية النفعيّة.

ثانياً: صدرت رؤية لسان الدين بن الخطيب من موقع حضاري مزدهر، وحضارة تحس بأنها مكتفية بذاتها قادرة على تحقيق إنجازات خارقة، معتزة بتراثها رغم أن بوادر الأفول كانت قد بدأت تلوح بالأفق، "فقد نظر المسلمون دوماً إلى حضارات الآخرين من زاويتين: الأولى جمالية، فركزوا أنظارهم على الطابع (الغريب) أو (الطريف) في الأشكال الثقافية وكتب الرحلات تشهد بذلك، الثانية: فقهية إذ ثبتوا أفكارهم وأحكامهم القيمية على العناصر الوثنيّة، أو المخالفة لشريعة الإسلام في تلك الثقافات أو الحضارات"(٢٤).

بينما صدر نيقولو مكيافيلي من منظور ثقافة الحركة الإنسانية "Humanism" التي صرفت الاهتمام العقلي عن التركيز على الأمور الدينية، التي كانت يوماً هي المبادئ، والأفكار الأساسية للأدب الكلاسيكي إلى التركيز على دراسات ذات قدر اكبر من العلمانية، فقد حاول رئيس المستشارية بفلورنسا في الفترة ما بين عامي ١٣٧٥م –١٤٠٦م وهو باحث يدعى كولتشيو سالوتاتي، أن يبرهن أن النصوص القديمة يمكنها أن تعلم الناس دروساً هامة غير موجودة في الكتاب المقدس فيما يختص بالحياة الأخلاقية والسياسية المعاصرة. بالإضافة إلى الزعم الذي قدمه الفيلسوف اليوناني بروتا جوراس القائل: "بأن الإنسان هو مقياس كل شيء" وقد كانت مرجعية كل من الحكومة والقوانين، وأخلاقيات المجتمع بالنسبة للمسيحيين في العصور الوسطى بأوروبا تفرض من قبل الله. أما بالنسبة لإنسانيي القرن الخامس عشر فقد رأوا أن كلاً من الإمبراطوريتين الرومانية واليونانية هما من صنع الإنسان وأن كلاهما يستحق الدراسة المتأنيّة ويعتبر عرضة للتغيير. رغم أن العديد من الإنسانيين كانوا مسيحيين ورعين فإنهم لم ينظروا للإنسان على أنه فاسد بالخطيئة التي ولد بها، وفي حاجة إلى الخلاص من خلال نعمة الله. إنما رأوه كائناً حراً ومبدعاً وقادراً على تحديد مصيره، وقادراً على السيطرة على كل من المنطق الأعلى والأهواء للدنيا"(٢٥).

خاتمة البحث:

لعل هذه الإضاءات على منظورين حضاريين مختلفين (تدعونا إلى النظر بحكمه بألا نقع فريسة مفهوم للصراع يجرنا إلى الاحتكام إليه بأدوات غير متكافئة، فالصراع ظاهرة طبيعية، لكن المصلحة تقضي بمحاصرته، واستيعابه وتجنب الوقوع في شراكه. ولا مفر من تمثل الوجوه الإيجابية من الحداثة الغربية وبخاصة، تلك المتعلقة بالعلم والعقلانية والتقنية والتنظيم)(٢٦). لعلنا نستطيع توليد إضاءة حضورنا في المشهد الإنساني الكوني منتجين لنموذج حضاري.

يؤكد (أن جمال "المثل الطيب المشخص" في عالم اليوم أعظم فعلاً، وأبعد أثراً من الأفكار حتى حين تكون هذه الأفكار جميلة وصادقة)(٢٧).

الهوامش

(١) سورة الحجرات، الآية (١٣).

(٢) انظر الحداثة وما بعد الحداثة، أوراق المؤتمر العلمي الخاص عام ١٩٩٩ لجامعة فيلادلفيا، بحيث د.محمد عبيد الله، تجربة الحداثة، ص٤٥، منشورات الجامعة، عمان، ٢٠٠٠.

(٣) انظر: د.فهمي جدعان، الطريق إلى المستقبل، أفكار قوى للأزمة العربية المنظورة، ص١٢٤–١٢٥، ط١، ١٩٩٦، المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

(٤) انظر: د.جابر عصفور، قراءة التراث النقدي، ص١٩، ط١، دار سعاد الصباح، الكويت، ١٩٩٢.

(٥) د.جابر عصفور، غواية التراث، ص١٤١، وزارة الإعلام مجلة العربي كتاب العربي، عد ٦٢، ط١، ص١، ٢٠٠٥.

(٦) انظر: د.فهمي جدعان، الطريق إلى المستقبل، أفكار قوى للأزمة العربية المنظورة، ص١٢٥–١٢٦.

× آلان تورين، عالم اجتماعي فرنسي من مواليد ١٩٢٥ أسس مركز دراسات علم الاجتماع في جامعة تشيلي سنة ١٩٦٠ اشتغل على تطوير مفهوم مجتمع ما بعد صناعي واهتم بدراسة الحركات الاجتماعية.

(٧) انظر: https://wikipedia.org – https://www.oudnad.net

× انظر أيضاً: مقالة د.فريد امعضيشو – المغرب في مجلة عود الند الثقافية الفصلية الإلكترونية، السنة السادسة، العدد ٧٠.

(٨) انظر المقال في مجلة تُبين ص١٠٩ صدر الكتاب سنة ٢٠١٣ عن دار إفريقيا الشرق الدار البيضاء، في ١٢٦ صفحة.

× إبراهيم عبدالقادر بوتشيش أستاذ بجامعة مولاي إسماعيل بمكناس ورئيس المجمعة المغاربية للدراسات التاريخية والحضارات المقارنة.

(٩) https://tabayyun.dohainstitute.org/arducuments/tabyun-٢٠١٥-٩ibrahim٢٠٪٢٠٪elkadiri٪boutchich..

(١٠) المرجع السابق.

(١١) المرجع السابق.

أيضاً: platform.almanhal.com Files/٢/٧٣٤٦.

(١٢) انظر: الإشارة إلى ادب الوزارة، تحقيق ودراسة محمد كمال شبانة (الناشر مكتبة الثقافة الدينية ٥٢٦ ش.بورسعيد توزيع الظاهر – القاهرة رقم الإيداع ٢٠٠٣/١٣٦٣٩. اقتضت طبيعة تحقيق هذه المخطوطة أن يرجع الباحث إلى (الريحانة) في مظان وجودها كافة جهد الاستطاعة وذلك في كل من المغرب وتونس والجزائر والقاهرة وأسبانيا وروما واعتمد في التحقيق لكل من الإشارة إلى أدب الوزارة ومقامة السياسة مخطوط مكتبة الاسكوريال بمدريد الغزيري (١٧٧٧ حيث تقع الإشارة في (١٩) لوحة و(السياسة) في (١٣) لوحة.

(١٣) انظر: د.محمد كمال، شبانة الإشارة إلى أدب الوزارة، ص٦٤ من صورة المخطوط المحققة.

(١٤)المرجع السابق، ص٦٤.

(١٥) انظر: المرجع السابق، ص٦٩.

(١٦) انظر: المرجع السابق، ص٧١–٧٢.

(١٧) انظر: مكيافيلي فيلسوف السلطة لروس كنيج، ص٩–١٥، ترجمة فايقة جرجس، مراجعة مجدي عبدالواحد عنبة، ط٢، ٢٠١٣م، الناشر (كلمات عربية للترجمة والنشر)، مصر.

(١٨) انظر: الأمير نيقولا ميكيافيلي، مقدمة/: كريستيان غاوس، تعريب: خيري حماد، تعقيب: د.فاروق سعد، ص٥١، ط١٢، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

(١٩) المرجع السابق، ص١٣٥، ١٣٦.

(٢٠) المرجع السابق، ص١٣٧.

(٢١) المرجع السابق، ص١٤٤.

(٢٢) انظر مقال أحمد الخميس الآداب السطانية، نص متجدد ٢٠٠٦، سلسلة عالم المعرفة www.diwanalarab.com.

(٢٣) انظر: د.فهمي جدعان، الطريق إلى المستقبل أفكار قوى للأزمة العربية، المنظورة، ص٥٠، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط١، ١٩٩٦.

(×) الفيلسوف (توماس هوبز)، هو عالم رياضيات وفيلسوف إنجليزي يعد أحد أكبر فلاسفة القرن السابع عشر بإنجلترا وأكثرهم شهرة في المجال القانوني.

(٢٤) انظر: د.فهمي جدعان، الطريق إلى المستقبل، ص١٥٩.

(٢٥) انظر: روس كينج مكيافيلي فيلسوف السلطة، ص١٢.

انظر أيضاً: Machiavelli Incontext، page ٣ Professor William R.Cook Thegreat Courses. Teaching Tate Engages The Mind Lecturd ٣٦، ٩٩، part ١٢٢.

(٢٦) انظر: د.فهمي جدعان، الطريق إلى المستقبل، ص١٨٦.

(٢٧) انظر: د.فهمي جدعان، الطريق إلى المستقبل، ص١٨٥.

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

١. إبراهيم عبدالقادر بوتشيش أستاذ بجامعة مولاي إسماعيل بمكناس ورئيس المجمعة المغاربية للدراسات التاريخية والحضارات المقارنة.

٢. الإشارة إلى أدب الوزارة، تحقيق ودراسة محمد كمال شبانة، الناشر مكتبة الثقافة الدينية ٥٢٦ ش.بورسعيد توزيع الظاهر – القاهرة رقم الإيداع ٢٠٠٣/١٣٦٣٩.

٣. الأمير نيقولا ميكيافيلي، مقدمة/: كريستيان غاوس، تعريب: خيري حماد، تعقيب: د.فاروق سعد، ط١٢، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

٤. الحداثة وما بعد الحداثة، أوراق المؤتمر العلمي الخاص عام ١٩٩٩ لجامعة فيلادلفيا، بحيث د.محمد عبيد الله، تجربة الحداثة، منشورات الجامعة، عمان، ٢٠٠٠.

٥. د.جابر عصفور، غواية التراث، وزارة الإعلام مجلة العربي كتاب العربي، عدد ٦٢، ط١، ٢٠٠٥.

٦. د.جابر عصفور، قراءة التراث النقدي، ، ط١، دار سعاد الصباح، الكويت، ١٩٩٢.

٧. د.فهمي جدعان، الطريق إلى المستقبل أفكار قوى للأزمة العربية، المنظورة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط١، ١٩٩٦.

٨. د.فهمي جدعان، الطريق إلى المستقبل، أفكار قوى للأزمة العربية المنظورة، ط١، ١٩٩٦، المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

٩. د.محمد كمال، شبانة الإشارة إلى أدب الوزارة، من صورة المخطوط المحققة.

١٠. روس كينج مكيافيلي فيلسوف السلطة.

١١. المقال في مجلة تبيُّن، صدر الكتاب سنة ٢٠١٣ عن دار إفريقيا الشرق الدار البيضاء، في ١٢٦ صفحة.

١٢. مقالة د.فريد امعضيشو – المغرب في مجلة عود الند الثقافية الفصلية الإلكترونية، السنة السادسة، العدد ٧٠.

١٣. مكيافيلي فيلسوف السلطة لروس كنيج، ترجمة فايقة جرجس، مراجعة مجدي عبدالواحد عنبة، ط٢، ٢٠١٣م، الناشر (كلمات عربية للترجمة والنشر)، مصر.

المراجع الأجنبية:

١٤. Professor William R.Cook The Great Courses. Teaching that Engages The Mind. Lecture ٤ Machiavelli In Context، Page ٣٦، part ١٢٢.

المواقع الإلكترونية:

١٥. https://wikipedia.org – https://www.oudnad.net

١٦. https://tabayyun.dohainstitute.org/arducuments/tabyun-٢٠١٥-٩ibrahim٢٠٪٢٠٪elkadiri٪boutchich..

١٧. platform.almanhal.com Files/٧٣٤٦/٢.

١٨. مقال أحمد الخميس الآداب السطانية، نص متجدد ٢٠٠٦، سلسلة عالم المعرفة www.diwanalarab.com.